العصر الرُستمي

العاصمة: تـيهرت أو تيهارت

من 160- 299 هـ 776-911م

الحياة الثقافية:

كانتْ عاصِمة الرّسْتميين "تيهرت" « تُشبَّهُ و تُقارَنُ بِقرْطبة و بَغداد و دِمشْق وغيْرها منْ عواصم الشّرْق اللاّمعة، فكانت تُدْعَى بعِراقِ المغرِب »[12] . و تُدْعَى كذلك: "بَلَخ المَغرِب" (بلخ: مدينة ببُخارَى، إشتهرت بالرّواجِ العِلمي و التنوّع الثقافي) كما أخبر بذلك سليمان الباروني.

سادت الثقافة الدينية بالدرجة الأولى « لأن الأئمة الإباضيين كانوا علماء دين (...) يُعلّمون النّاس و يُلقونَ عليْهم بالمساجد دُروساً في التّفسير و الحَديث و الفِقه و الكَلام و الآدابِ والعلوم و الرّياضِيات و التّنجيم (...) و كان بتيهرت مَكتبة تُدْعى المعْصُومة، فيها الآلافُ من المُجلّدات، و لمّا دخلَ الفاطِميون إلى تيهرت، استوْلوا عليْها سنة 399هـ / 911م وأحْرقوها »[13]

فإذا اقتصرْنا على الحديث عنِ الأدب – مَثلاً – بِفرْعيْهِ: النّثرُ و الشّعْرُ في عهْد الرُّسْتميّين؛ فإنّ أوّلَ شخْصِية يُمْكن الإسْتئناسُ بهَا، هي شخْصية الإمام "أفلح بن عبد الوهاب" الذي خلّف النثرَ و الشعرَ على السّواء... و يَغلبُ علَى كِلَيْهِمَا طابعُ الوَعْظ و الإرْشادِ؛ و لا غرابة في ذلك، فالباحث في الأدب الجزائري القديم – عُموماً- يُلاحِظ إزْدِوَاجِية الفِقْه مع الأدب في أغلب النّتاج، و هو مَا سيَسِمُ النّصّ الإبْداعِي بِمسْحَةٍ مِنْ غيابِ الرّوْنق... إنْ جاز التّعبير...

1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول، ص 173.
2) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول، ص 174
3) محمد الطمّار، تاريخُ الأدبِ الجزَائري، ديوان المطبوعات الجَامعية، الطبْعة الثانية، السنة 2010، ص 73.

مِنْ بيْنِ الأشكــال التَّعبيرية الـتى تعـاطـاها الإمام "أفلح بن عبد الوهاب"؛ على مستوى النثر، كتابة الرّسائل، و فيما يلي نموذج منها:

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله و سلم على سيدنا محمد وعلى آله و صحبه وسلم، من **أفلح بن عبد الوهاب** إلى ..... (بياض في الأصل).

أمَّــا بـعْــدُ: ألبَسَنا اللهُ و إيـّـاكَ عافيتَهُ، وكَفانَا وَ إيّاك مهمّات الأمُورِ برَحْمته. كتبْتُ إليْكَ و أنا ومَنْ قِبَلِي و خاصَّتِي و الرّعِيَة عامّة على أحْسن حالٍ جرَتْ به عادة الله وتوَارَتْ بهِ نعْماؤهُ فلهُ الحمْدُ كثيرا و الشّكرُ دائِما.

أتاني كتابك بالذي أحبُّ عِلمَهُ منْ سلامَتك، وحُسْن حالك، وتواتُر نِعَم اللهِ عليْك، و إحْسانه إليك، و إلى من قبلك من الرّعية، و أهل الطاعة فَسَرَّني بذلك، و حمدت الله كثيرا عليه وسألته تمام النعمة علينا وعليكم برحمته إنّه مجيب، وذكرتم أمر **نفاث**، وأكثرتم فيه الكتب ووصفتم عنه أشياء لا يشُّك أحد منكم في أنَّها بدعة وخلاف لما مضى عليه سلفكم، فإن يكن كما وصفت فما ينبغي لأحد منكم أن يخالجه الشَّك في أن ذلك ضلالٌ، لأنَّ الهدى في أيديكم، و الحقُّ ما شرعه لكم سلفكم الصّالح و الأئمة المرضيين رضي الله عنهم فمن أتى من بعدهم من يخالف شريعتهم ويأخذ في غير طريقهم، فهو ذو بدعة وكلُّ بدعة ضلال، وكلُّ ضلال كفر، وكلُّ كفر في النَّار، و أنتم على يقين من سنَّة أسلافكم، ولا يتَّبع الهدى إلاَّ في موافقتهم، ولا يخاف العاقل الهلاكَ إلاَّ في خلافهم وقد قلتم في كِتَــابــكــم: " هـو غـلام حــدث غرٌ لا تربة لــه فـــي الأمــور، فنــخــاف أن جــشــمناه السّفر والشّخوص أن تحمله اللجاجة مع إعجاب الرأي و التَّيه بالنفس على التَّمادي فيما يهلك به نفسه " فما وجه ما سألتم من ذلك؟ وهل أنتم على شكٍّ من دينكم أو ريبة من أمركم؟ السنّة في أيديكم و أسلافكم الماضون على مثل حالكم، بل كانت لهم عمال في حال كتمانهم و كِبارٌ يقومون بكل أمر من الحقوق وغيرها في حال الكتمان وليس أحد منهم يقول ما حكيتموه عن هذا الغلام.

فلما حدث منه ما ذكرتموه كان أمرا واضحا، وهو أنَّه أخذ بخلاف ما مضى عليه سلفه وأحدث مقالة، لم يقلها عنهم غيره وأنتم على يقين من أمْرِكم فما أحوجكم إلى مجيئه

وأشخاصه وإن كنتم تريدون و أن تعلموا ما نحن عليه، فنحن على مامضى عليه سلفنا، ومُقِرون لما حكيتموه عنه أن قاله، فقوموا عليه فإن رجع عن مقالته، ونزع بدعته، فمقبول منه رجوعه و مرحبا بالتّائب حيث كان وممَّن كان وأين كان، و إنْ أَبَى إلاَّ التَّمَادي فأنتم تعلمون السِّيرة فيمن إبتدع في دين الله وشق عصا الإسلام، وقال بخلاف الحقِّ، فإنَّه محقوق بأن يُهجر ويُقصى ويُبعد، و**نفاثّ** مثل واحد من النَّاس لا أخصه بشيء دون غيره، و السِّيرة فيه و في غيره واحدة، و السُّنة قائمة وحكم الله لا يزول و لا يتبدَّل، فإنَّا نشهد الله على من كان من أهل هذه الدعوة وعمالنا وقوادنا وأهل العلم من أصحابنا، ومن التَّف إليهم من رعيتنا، أن لا يسمع أحد يبتدع في دين الله أو يسلك طريقة غير طريقة أصحابنا الماضيين من أسلافنا، إلاَّ و يكون قد غير ذلك وأطفأه، و إستَتَاب من أظهره، فإن لم يَتُب خلعه، فهذه مني عزيمة واجبة وأمر لازم وفرض محرم، أن يتعدَّى أو يقول بخلافه، فمن قُرِئ عليه كتابي هذا، فليسمع وليطع، ولينتبه إلى ما أمرت به، فإنَّ من إنتهى إليه كتابي هذا في حرج إن قَصُر عمَّا أمرت به، و من عاب أحدا من عمالنا بخِصلة من الخصال أو أنكر عليه شيئا فليرفع ذلك إلينا فنكون نحن الذين يُغيرونه إن كان ممَّا يغير.

وليس للرعية الوثوب على السُّلطان حتَّى ترفع ذلك إلينا، لأنّ الوثوب على السُّلطان والإقتفاء للخصال التي نحن أولى بالنّظر فيما خطأ من الرعية وضَرب من ضروب السَّائبة، لأنَّ هذا و ضربه ممَّا لا يعلم باطنه إلاّ بالبحث، وقد ظنّ الظَّان في الأمر، فيراه خطأ وهو عدل من حيث لا يعلم و لم يظلم من دعاكم إلى نفسه وكلفكُم بأن ترفعُوا أموركم إليه لأن في ذلك شفقة منا عليكم أن تهْلكوا من حيث لا تعلمون، والله ولي عصمتنا و توفيقنا و إيَّاكم وهو المستعان لا شريك لهو قد كتبت إليك جواب مسائلك، فعليك بتقوى الله والعمل بطاعته وحُسن النَّظر لنفسك فإنَّها إن سلمت لك، فقد نجوت وفزت فوزًا عظيمًا ولا تدع الكتابة إلي بحالك وسلامتك فإنَّك تَسُرُني بذلك و السلام.»[14]

4) سليمان الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ص112 – 113.

مناسبة الرّسالة:

كان **"فرج بن نصر النفوسي"** الذي إشتهر بـ **"نفاث"** من علماء الأباضية المشهورين بغزارة العلم والاجتهاد و صواب الرأي، اعترف له بذلك خصومه من شيوخ المذهب، وسجلو الحقائق و الأساطير حول علمه و رجاحة عقله وقوة فكره، فقالوا أنَّه أخذ العلم عن الإمام **"أفلح"** نفسه الذي كان قد ظهرنبوغه قبل أن يبلغ الحلم، ونصّوا على أنّه لم يكن يكتفي بالعلم النظري بل كان يسعى ألى إثبات النظرية بالتجربة، لهذا كان يسعى الإمام **"أفلح بن عبد الوهاب"** إلى إرجاعه ألى صوابه و إبعاده عن الأفكار البدائعية، إلاَّ أنّ، مايلفت الإنتباه هو تسمية **"فرج بن نصر النّفوسي"** بـ **"نفاث"** فما سبب هذه التسمية؟

تسمية النفاثية:

إذا كانت **"نفوسة"** و جبلها قد مثَّلت الثّقل في إمامة **تـاهرت** الرستمية فأنَّ مدينة **"قنطرارة"**[15] وحيزها كانت بمثابة مركز الثّقل في جبل **"نفوسة"** وبسبب التّنافس على ولاية إقليم **"قنطرارة"** كان الإشتقاق الثالث بين الأباضية على عهد الإمام **"أفلح بن عبد الوهاب"**، وهو الإشتقاق الذي عرف أصحابه بـ **"النّفاثية"** نسبة إلى **"نفاث"**، وهو اسم الشّهرة الذّي عرف به به قائد الحركة **"فرج بن نصر النّفوسي"** و مع أن **"الباروني"** يسجّل إسمه في شكل **"نفاث"**، ويقول أنّه ربّما كان من القرية المعروفة الآن **"نفاثة"**، والتي ربما كان أهلها المالكية من سلالته، فالواضح من النّصوص أنّ أصحاب الإمام **"أفلح"** هم الذين أطلقوا اسم **"نفاث"** على **"فرج"**: **كلقب تجريحي**، كما فعلوا مع **"النّكار"**، والإسم الذّي يكاد يعادل اسم **الخوارج** الذّي أطلق على أسلافهم الأوائل. وإذّا صحّ ذلك فأغلب الظنّ أنّ إسم **"نفاث"** مشتق من الفعل **نفث، ينفث**، والمقصود به هو **نفث سموم الخلاف والفرقة**.

وإلى هنا ورواية **"أبي زكريا"** تسجّل أنّ سبب خلاف **"نفاث"** سياسي دنيوي من أجل ولاية **"قنطرارة"**، ولكنّه يأتي بعد ذلك بـأسباب أخـرى ذات طبيعة فقهية مذهبية ترجع أنّ الخلاف

5) قنطرارة هي المدينة المعروفة حاليا بـــ"تيجي" وكانت ذات عمارة واسعة وثمار متنوعة، وعيون جارية في ذلك العهد، وإن لم يبق فيها الآن إلا قليل من النخيل وبعض العيون التي ينتفع بها.

كان دينيا من حيث الشّكل على الأقل، أو أنّه، صار هكذا من ذلك ما ينسب إلى **"نفاث"** عن أنه قال في الإمام **"أفلح"**: **"أضاع أمور المسلمين، ويزيد في الخلقة ويلبس الطرطور، ويخرج إلى الصيد ويطلي بالأشبر"**[16]، ممّا يعني أن **"نفاثا"** كان متمسكا بسنن أهل الدعوة القديمة، وأنّه كان ضدّ مظاهر التّطور التّي أخذ بها الإمام **"أفلح"** من التّجديد في **الزي**[17] وتقليد خلفاء بغداد وعمالهم في لبس القلانس، والعناية بالمظهر، وإنفاق بعض الوقت الفي الرّياضة، ثم تسلل الخلافات المذهبية والفقهية في عدد من المسائل التّي يظهر فيها إجتهاد **"نفاث"**، والتّي أنكرت عليه حتى نُسِبَ بسبب بعضها إلى الكفر.

فمن المسائل التّي إبتدعها **"نفاث"**[18] زعمه أن خطبة الجمعة بدعة ومن أخطرها فتواه بأنّ أبناء أخي الرّجل من الأب و الأم (أي الشّقيق) أولى بوارثته من أخيه من الأب فقط، ويعلق **"أبو زكريا"** على هذه الفتوى فيقول: **"إنّ نفاثا" رادا بها ضلالا، وأنّ المشايخ قالوا: "لو لم يفت إلا هذه المسالة لكفر بها"**.

ويضيف **"الباروني"** في **"الأزهار الرّياضية في أئمة الملوك الأباضية"** عددا من مسائل الخلاف التّي أثارها **"نفاث"** منها قوله: أنّ الله هو النّص الدّائم وإنكاره استعمال الإمام العّمال والسّعاة لجباية الحقوق الشّرعية ومطالب بيت مال المسلمين هي الرّعايا، وقوله أنّ المضطر بالجوع لا يمضي بيع ماله إذا باعه لأجل ذلك. »

و أمَّا في ميْدان القريض، فقدِ اشتهرتْ قصيدةُ: "فضلُ العِلْم" للإمام "أفلح بن عبد الوهاب" أيضا و التي تناولتْها مُعْظمُ كتبِ الأدبِ الجزائري؛ بلْ و حتّى كتبُ التاريخ، يقول في بعْضها[19]:

6) ينظر الأزهار الرياضية للباروني، قسم2، ص198، حيث يشرح ويزيد في الخلقة بمعنى أنه عظيم العمامة، كبير الوجه، طويل اللحية جدا كما يصلي بالأشبر من الدرجين بدلا من يطلي بالأشبر ويصبغ شعره بالحناء.
7) سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، 351/2.
8) سليمان الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية،ص93.
9) مثلا، يُنظر: محمّد الطمّار، تاريخ الأدب الجزائري، و العرْبي دحّو، الشعر المغربي، و عبْد الرّحمن بن محمّد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، و محمّد بن رَمضان شاوش، الدُّرّ الوَقّاد مِنْ شِعر بَكْر بن حمّاد، و غيْر هؤلاء كثير...

العِـــلـــمُ أبْـقى لِأهْـــلِ العِـلْمِ آثارَا * يُرِيـــكَ أشْخـــاصَهُمْ رَوْحـــا وَ أبْكـارَا

حتّى وَ إنْ ماتَ ذو عِلْمٍ و ذو وَرَعٍ * مَـا مَـاتَ عبْدٌ قضَى مِنْ ذاكَ أوْطارَا[20]

و ذو حـــياةٍ علَى جهْلهَا و مَنْقصَة * كميِّتٍ قدْ ثوَى في الرَّمْسِ[21] أعْصَارَا[22]

للهِ عُـصْبَة أهْـلِ العِـلمِ إنّ لَـــهُمْ * فضْـــلاً عـــلَى النَّـاسِ غِياباً و حُضارَا

و لعلّ خيْر مَنْ يُمثلُ الشّعرَ الجزائري إبّان الفتْرة الرُّسْتُمية، الشاعر بَكر بن حمّاد التيهرتي الذي احتل مكان الصَّدارَة... حتى استطاع أن يدخل بلاط الخليفة العباسي، و « وصل خبره إلى الأندلس، فقصَدهُ الكثيرُ منْ أهلها لِلأخْذِ عنْهُ و التّخرّجِ على يده. وكان منْهمْ قاسم بن أصبغ البياني، وَ قرّبَهُ بَنو الأغْلب إليْهِمْ، فقال فيهمْ القصائدَ الرّائعة وَ نالَ مِنْهُمْ الجوائزَ السّنية...»[23]

جُمِع شِعرُ "بكر بن حمّاد "في ديوانٍ عُنوانُهُ: "الدُّرُّ الوَقّاد مِنْ شِعرِ بَكر بن حمّاد" و قد تضمن هذا الديوان عدة أغراض شعرية...لعل أجودها ما جاء منها في رثاء ولده عبد الرحمن، يقول[24]:

بَكيتُ على الأحِبّةِ إذْ توَلّوا * ولـوْ أنّـي هلـكتُ بَكوْا عليَّا

فيـا نسْلي بقاؤكَ كانَ ذخْراً * و فَـقـدُكَ قدْ كوَى الأكْبادَ كيَّا

10) أوْطارا: مفرد وَطرٌ، و هو الغرَضُ أوِ المأربُ أوِ الحاجَة.

11) الرّمْس: القبر.

12) أعْصارَا: يقصد عُصُوراً.

13) محمّد الطمّار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 77.

14) بكر بن حماد، الديوان، تقديم و جمع وشرح، محمد بن رمضان شاوش المطبعة العلوية، مستغانم، السنة 1966، الطبعة الأولى. ص 87.

كفَى حُزْناً بأنّنِي مِنْكَ خُلوٌ[25] * و أنّـكَ مـــيِّتٌ و بَـقيتُ حيَّا

وَ لـمْ أكُ[26] آيِساً فيئسْتُ لمَّا * رَمَيْـتُ التُّرْبَ فوْقكَ مِنْ يَدَيّا

و تظلّ أسماء أخْرى مُنْتسبَة في نِتاجِها إلى فترة الحُكْم الرُّسْتُمي، يُمْكنُ إجْمالها في الآتي: «أبو الفضل أحمد بن القاسم التميمي البزاز، أبو سهل الذي كان يحسن، زيادةً على العربية اللهجة البربرية، و ألف فيها مُصنفاتٍ احترقتْ في الفتنِ التي أصِيبتْ بها تيهرت سنة 350هـ/917م، ابن الصغير، مؤرخ الدولة الرستمية، يهوذا بن قريش التاهرتي، وهو واضع أسس النحو التنظيري و قد وُجِدَ كتابُهُ بِإنْجلترّا / مكتبة أكسفورد، ثم أحمد بن فتح التاهرتي، الذي انتقل إلى المغرب الأقصى، و سعيد بن واشكل التاهرتي، و النعمان بن المنذر، و هو من تلامذة الإمام سحنون.»[27] إرتأيتُ ختْمَ الحديثِ عنْ هذه الفترة، بذلك الاجتماع الذي تمَّ بيْن الإباَضِية و المُعْتزِلة للمُناظرة و أوْرَدهُ البَارُوني فقال: «.. أخبرني أحمد بن بشر عنه قال لي: اجتمعتِ الإباضية و المعتزلة بِنَهْرِ مينة، لِمَوْعدٍ جعلوهُ فيما بيْنهم للمُناظرة، و كان كثير من هُوارَة ممّنْ حضر المجْلس؛ يَتسمَّى بعبْد الله بكسْر الدّال و كذا اسم هذا الرجل، و لمّا اجتمعَ القومُ و ضمّهُمُ المكانُ، نادى رَجلٌ منَ المُعْتزِلة: يا عبدِ الله؛ بكسْر الدّال فأجابه رَجلٌ ثانٍ فقال: لستُ أرِيد... قال عبد الله و قد علمتُ أنّه إيّايَ يُريد... فكرِهتُ أنْ أجيبه خوْفاً من سؤاله، فقال عبد الله بن اللمطي: أرِيدُ. فقلتُ: لبيْك. فقال لي: هلْ تستطيع الإنتقال من مكانٍ لسْتَ فيه، إلى مكانٍ أنتَ فيه ؟ فقلتُ: لا! فقال لي: هلْ تستطيعُ الانتقال من مكانٍ أنتَ فيه إلى مكانٍ لستَ فيه ؟ فقلتُ: إذا شئتَ فعلتُ ... ! فقال: خرَجْتَ منْها يا عبد الله. »[28]

ملاحظة: غاب عني شرح كلمة "النكارية" في سياق الحديث عن بعض الفتن التي عرفتها تيهرت الرُّسْتمية... و أسْتدركُ هذا السّهْوَ فأقول: النِّكارية : فِرْقةٌ منَ الخوارج، تشيّعوا لابْن فنْدين، ضدّ الإمام عبْد الوهّاب، فسُمّوا "إنكارية" بسبب إنكارِهم إمامةَ عبْد الوَهّاب و هم الذين سيقتلون "ميمون بن عبْد الوهّاب ".

15) خُلْوٌ: وَحيد

16) أكُ: مُخفّفة مِنْ: لمْ أكُنْ.

17) يُنْظر، أغلب كتبِ الأدب و التاريخِ الجزائريِيْن و قد سبقت الإشارة إلى بعض العناوين في هذا الموضوع.

سُلَيْمان باشا البارُوني النّفّوسي، الأزْهار الرّياضية في أئمّة و مُلوك الإبَاضية، دون طبعة، دون تاريخ، ص 115.